الفصل العاشر

الشفرة المنطوقة والشرفة المكتوبة

الوظائف اللغوية

الشفرة المنطوقة والشفرة المكتوبة: الوظائف اللغوية

يرتبط الحديث عن وظائف اللغة بظاهرة التخاطب. وقد ارتبطت هذه الظاهرة بدورها في علم اللغة الحديث بثلاثة نماذج رئيسة مقترحة للتخاطب أو العملية التبليغية، وهي: نموذج فرديناند دوسوسير F.de Saussure، ونموذج كارل بولر Karl Buehler، ونموذج رومان ياكوبسون R. Jacobson، ويمكن أن يبدو نموذج دوسوسير على هذا النحو (الشكل ١٦):

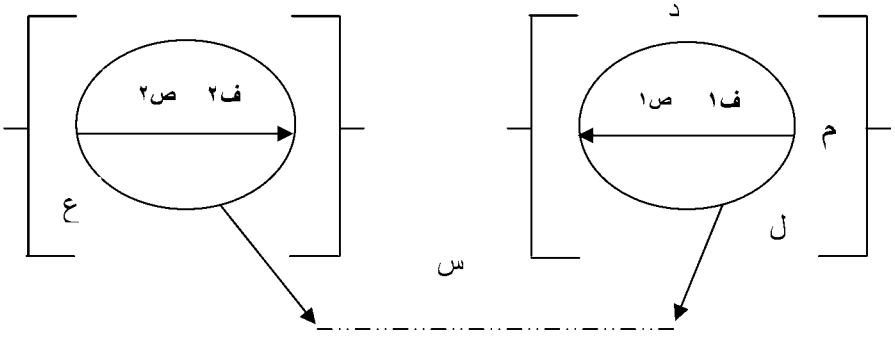

الشكل (١٦)

هذا هو النموذج الذي اقترحه دوسوسير، وهو يعني أن المتكلم في لسان ما:

- يعمد إلى تصور فكري (ف١) ملائم ويرفقه بصورة ذهنية (ص١) للفظة التي تعبر عن ذلك التصور في اللغة المشار إليها.
- ثم يلفظ هذه الكلمة (ل).
- ثم تنتقل اللفظة عبر المسافة (س) الفاصلة بين المرسل والمرسل إليه.
- ثم يتلقاها المستمع أو المرسل إليه (ع).
- ثم يقوم بتأويلها من حيث هي صورة صوتية (ص٢) ملازمة للتصور الذهني (ف٢) الذي تشير إليه.

فإذا كان ١ = ف٢ صح التفاهم بين الرجلين، وبذلك نرى أن عملية التخاطب تتفرع إلى فروع ثلاثة:

- المسافة (س) التي تتعلق بنقل الإعلام وتمثل الجانب الفيزيائي لهذه الظاهرة (وتخضع للقوانين الصوتية وكيفية التواصل).

- الجانب النفسي الفسيولوجي المتمثل باللفظ والاستماع (ل ع)، مثل مخارج الأصوات وآفات السمع.

- وهناك أخيرًا الدائرة (د) التي تضم جانبًا نفسيًا صرفًا، وهو التلازم بين الفكرة والكلمة. في هذا الجزء بخاصة يتحدد موضوع الدراسة اللسانية باعتبار اللسان ظاهرة نفسية جماعية.

ويفترض فى التخاطب حتى يؤدي عمله أن يصل بين شخصين يملكان عددًا مشتركًا من الأفكار والألفاظ[1]. أما نموذج كارل بولر، فهو معروف في اللسانيات الحديثة باسم (نموذج الأورجان عند كارل بولر Karl Buehlers Organon - Modell) وهو يبحث العلاقات الجوهرية بين العلامات اللغوية داخل نموذج تبليغي بسيط. وقد لقي نموذج الأورجان الذي قدمه بولر اهتمامًا ملحوظًا من علم اللغة الحديث، واتخذ منطلقًا لتوضيح وظائف اللغة.

من ناحية أخرى، فقد اتخذ هذا النموذج – في أعمال علم اللغة النصي – منطلقًا لتوضيح بنية الدلالة النصية.

يرى بولر أن العلامة اللغوية ليست في مبدأ الأمر إلا حقيقة مادية (أي أنه ينظر إليها باعتبارها دالاً) تتجاذبها ثلاث علاقات (انظر الشكل ١٧) وهي:

١- المتكلم الذي يفصح عما يريده (= المرسل).

٢- المستمع الذي يستقبل (= المستقبل).

٣- الأشياء والأوضاع المتحدث عنها.

---

(1) رونالد إيلوار: مدخل إلى اللسانيات، مرجع سابق، ص٤٧-٤٨

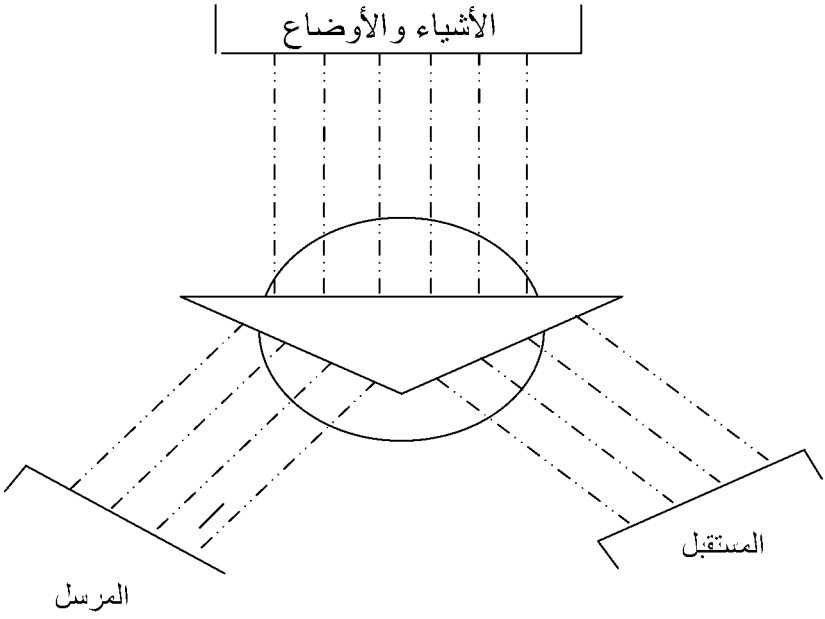

الشكل (١٧)

ويهدف بولر بهذا النموذج إلى تحديد وظائف العلامات في شكل توضيحي. ويحدد بولر وظيفة العلامة اللغوية بأنها ذات أوجه ثلاثة:

- أن تكون رمزًا Symbol على الأشياء والموضوعات.
- وأن تكون مؤشرًا Symptom على تعبير المرسل.
- وأن تكون علامة Signal في وظيفتها الاستدعائية Appell (لاسم أو شئ بعينه) عند المستمع[1].

وقد طور رومان ياكوبسون نموذج بولر. ومع اختلافهما في المصطلحات، فإن ياكوبسون قد ضاعف وظائف اللغة عند بولر؛ أي أنه جعلها ستًا لا ثلاثًا. من ناحية أخرى، جعل ياكوبسون عناصر نموذجه أربعة، هي: المرسل، والمستقبل، والسياق (وهو هنا ليس السياق بمعناه المألوف، وإنما السياق بمعنى الموضوع الذي نتحدث عنه، وهو ما يناظر الأشياء والموضوعات عند بولر) والخبر Nachricht؛ أي التبليغ، ويدخل في ذلك النص نفسه. وقد أضاف ياكوبسون إلى ما سبق عنصر الوسيط

(1) Coseriu, op0. cit., SS. 53-55

الذي يتم فيه التبليغ؛ أي الوسيط السياقي Kontextmedium الذي يجري فيه - بشكل عام- اتصال المرسل والمستقبل أحدهما بالآخر. ولا شك أن هذا الوسيط الاتصالي له أهمية خاصة، عندما لا يكون هناك مجال للتفاهم المباشر؛ كأن يكون من خلال نصوص مكتوبة، أو عبر التليفون، أو نحو ذلك. ويشير ياكوبسون أخيرًا إلى النظام؛ أي اللغة التي هي المفتاح الجامع بين المرسل والمستقبل على وظيفة واحدة، هي فض مكنون الخبر، أو ما يسميه ياكوبسون الشفرة kode.

بناء على ما سبق، تحصل لدينا ست علاقات لا ثلاث، هي التي تكوِّن حدث الخطاب، فيما يرى ياكوبسون. إنها ست وظائف محددة تقوم كل وظيفة منها بمفردها. وهنا تبدو الوظائف التي تحدث عنها بولر في صورة أخرى: فالوظيفة الإخبارية أو التعبيرية Kundgabe عند بولر، تضاهي الوظيفة الانفعالية Emotive عند ياكوبسون. والوظيفة الاستدعائية عند بولر (Appell) Ausloesung تضاهي الوظيفة التبليغية عند ياكوبسون Konative. وما يسميه بولر بالوصف أو العرض Darstellung هو ما يبدو في الشكل التوضيحي الذي قدمه ياكوبسون باسم الوظيفة الإشارية أو المرجعيةreferentielle Funktion. ويقدم ياكوبسون وظيفة أخرى لم يعرفها نموذج بولر، ترتبط بالوسيط التبليغي أو وسيط الاتصال Kontaktmedium ويسميها– متأثرًا في ذلك باصطلاحات العالم الأنثروبولوجي مالينوفسكي Malinowski – وظيفة قبول الاتصال والشروع فيه Kontaktaufnahme ، وتقوم على فحص قناة الاتصال لتحديد مواصفات الاتصال التقنية والفيزيقية والاستعداد النفسي لحدوث هذا الاتصال[1].

ويرى كوزيريو أن الحديث عن هذه الوظيفة الأخيرة أمر وارد، وذلك إذا كان الاتصال اتصالاً غير مباشر وواقعًا عن طريق تقني. ومثال ذلك ما نجده من صيغ في كثير من الجماعات اللغوية تتكرر عند محادثة تليفونية، أو جمل لا معنى لها، أو كلام مكتوب على شاشة تليفزيون... الخ.

---

(1) Coseriu. op. cit., SS. 56-57

ويقدم ياكوبسون وظيفة أخرى، تختص بالشفرة وحدها: هي الحديث بالشفرة. ويسمى ياكوبسون هذه الوظيفة التسمية الشائعة في المصطلح اللغوي؛ وهي وظيفة ما وراء اللغة metasprachliche Funktion. والوظيفة الأخيرة عنده هي الوظيفة الشعرية poetische Funktion، وهي وظيفة تختص بتشكيل الخبر وبلورته. وفيما يلي نموذج ياكوبسون (الشكل١٨):

السياق

وظيفة إشارية

المرسل — الخبر — المستقبل

وظيفة انفعالية — وظيفة شعرية — وظيفة استدعائية

الوسيط التبليغي

وظيفة قبول التبليغ

الشفرة

وظيفة ما وراء اللغة[1]

الشكل (١٨)

ونود – بعد ذلك العرض الموجز السابق لوظائف اللغة في عمومها عند ثلاثة من أكبر اللغويين المحدثين – أن نحدد في النقاط التالية موقف كل من الشفرتين: المكتوبة والمنطوقة من الوظيفة اللغوية ومدى تفاوتهما في أدائها:

أولاً: تساعد عوامل إنتاج الشفرة المكتوبة، كالإعداد، وعامل الوقت، وغياب المواجهة المباشرة ونحوها، على وسم اللغة المكتوبة بسمة عقلية أو منطقية، بينما تساعد عوامل إنتاج الشفرة المنطوقة، وهي

(1) Coseriu, op. cit., S. 58

ووظيفة ما وراء اللغة حالة خاصة، وهي وظيفة تسمية الأشياء في اللغة، ويمكننا أن نتحدث باللغة عن اللغة ذاتها، عن مادتها ومضامينها. فإذا قلنا مثلاً: إن كلمة (بحر) مكونة من أربعة فونيمات (حال الوقف)، فإننا نصف باللغة حقيقة لغوية.

عوامل معاكسة، على وسم اللغة المنطوقة – إلى جانب العناصر العقلية أو المنطقية بالطبع – بسمة انفعالية وإرادية. ولا ريب أن هذه مسألة نسبية. والحكم فيها على الغالب.

وتعني الملحوظة السابقة – في إطار رصد وظائف اللغة عند ياكوبسون – غلبة الوظيفة الانفعالية في الشفرة المنطوقة. وتحدد هذه الوظيفة العلاقات بين الرسالة والمرسل.

فالمتكلم هنا أكثر من أي موقف تبليغي آخر، يعبر عن أفكاره ومواقفه إزاء الأشياء والموضوعات والناس الذين يحادثهم. ومن هنا فقد أصاب هاينتز روب Heinz Rupp حين جعل سمة (الذاتية) من أهم السمات الثلاث الجوهرية للغة المنطوقة.

وهي ذاتية؛ لأن اللغة المنطوقة تدور في نطاق المتكلم، بينما تعرف اللغة المكتوبة من قبل المستمع وما تدور حوله من أشياء. وتنطبق مقولة (الذاتية) تمامًا على الديالوج، وهو الصيغة الرئيسة للخطاب الشفهي. ويمكن أن تطلق (الذاتية) على اختصار بعض التعبيرات. ولا ريب أن الاكتمال المنطقي النحوي والصياغة الفكرية ملامح لا تتعارض مع التعبير الانفعالي.

وتبدو (الذاتية) كذلك، في استخدام أدوات لغوية يرتفع معدل تكرارها في الشفرة المنطوقة؛ كإمكانيات التنغيم المتنوعة، وأساليب النداء، والأمر، وتصغير التحقير Pejorativa، والمحسنات Meliorativa، والتحويرات Alterata، وأدوات التقوية Abtoenungspartikeln، وما يسمه هوجو موزر بـ (مفردات الحشو الموضحة المنشطة verdeutlichende und belebende Flickwoerter)، التي تعرفها اللهجة الدارجة ولغة الحياة اليومية (نحو: إذن، فعلاً، حسنًا، حقًا، نعم ...الخ).

وتفترض أدوات التوكيد والتحقيق المواجهة الحقيقية بين المتكلم والمستمع في موقف تبليغي حقيقي.

فهذه الأدوات رهينة باشتراكهما في الكلام، وهي علامة على اتصال أحدهما بالآخر[1].

ونلاحظ هنا أن استخدام المتكلم مفردات الحشو والتوكيد يرتبط – إلى حد بعيد – برد فعل المستمع على كلامه، مما يبرز الوظيفة الأمرية في الشفرة المنطوقة.

وتحدد هذه الوظيفة العلاقات بين الرسالة والمتلقي؛ لأن لكل اتصال غايته في الحصول على رد فعل من هذا المتلقي.

ثانيًا: إن غلبة الانفعالية والذاتية على اللغة المنطوقة تعني – في إطار رصد كارل بولر لوظائف اللغة – أن الوظيفة التعبيرية **Ausdrucksfunktion** (التي تحدد العلاقات بين الرسالة والمرسل إليه) تلعبان في تلك اللغة دورًا أكبر نسبيًا مما تلعبه في نظيرتها المكتوبة، بينما تتغلب الوظيفة الوصفية أو العرضية (بفتح العين وسكون الراء) نسبيًا في اللغة المكتوبة.

ويمكن مضاهاة الوظيفة العرضية عند بولر بالوظيفة المرجعية عند ياكوبسون؛ فكلتاهما تحدد العلاقات بين الرسالة والموضوع الذي ترجع أو تحيل إليه.

فالمسألة الأساسية تكمن – كما يقول غيرو – في صياغة معلومة صحيحة عن المرجع، تكون موضوعية ويمكن ملاحظتها والتأكد من صحتها[2].

ولذلك جعلت هذه الوظيفة وظيفة معرفية وموضوعية.

ويمكننا بيان ما سبق بالشكل التالي:

---

(1) Soell, op. cit., SS. 60-62

(2) بيار غيرو: السيمياء، مرجع سابق، ص١٠

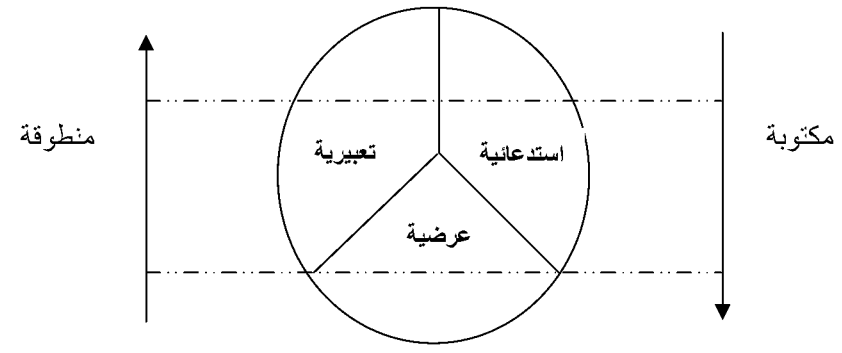

الشكل (١٩)

وقد اجتهد الباحث اللغوي المعاصر سول في إبراز وظيفة أخرى، هي الوظيفة التأكيدية (أي تأكيد الاتصال) التي يكون فيها الاتصال ذاته هو الهدف[١].

وهذه الوظيفة تقابل وظيفة إقامة الاتصال عند ياكوبسون، وتهدف إلى تأكيد الاتصال وتثبيته أو إيقافه. ويدخل في هذه الوظيفة العلامات التي تعمد إلى التأكد من فاعلية الاتصال (ألو، أتسمعني؟) أو إلى لفت انتباه المتحدث أو التثبت من عدم إهماله الخط (قل، أتسمعني؟)، أو الإشارة بأسلوب شكسبيري (اصغ إليّ جيدًا)، فيجيبه المستمع على الطرف الآخر: (هم.. هم)!

وتلعب وظيفة إقامة الاتصال دورًا مهمًا في الأحاديث العائلية أو الغرامية، حيث تنعدم أهمية محتوى الاتصال، فيصير مجرد الوجود في هذا المكان وتأكيد المرء ارتباطه بالمجموعة هدفي الاتصال الأساسيين. وفي هذه الأحاديث جميع الأفراد يكررون الكلمات ذاتها، والحركات ذاتها، كما أنهم يستعيدون الأخبار والروايات ذاتها، بحيث إن اتصالاً مبهمًا يبدو للزائر أو الغريب غير محتمل، ولكنه يغدو طريفًا للذي يشترك فيه والذي "يتعلق به"[٢].

---

(1) Soell, op. cit., S. 33

(2) بيار غيرو: السيمياء، مرجع سابق، ص١٢-١٣

ويسوق هرمان Hermann أمثلة أخرى تبين غلبة الوظيفة التأكيدية كذلك في الشفرة المنطوقة، نحو الأحاديث اليومية، والمحادثات العابرة بين شخصين عن الجو أو الصحة... الخ، أو حتى المحادثات الاجتماعية ذات الصياغة الأسلوبية العالية. ففي مثل هذه الحالات لا يكون من الأدب أن يصمت المرء ولا يقول شيئًا[1].

إن تحاشي الصمت – في الوظيفة التأكيدية – هو حقًا الوظيفة الأساسية للكلام. والصمت والكلام – كما يقول سول ببساطة وعمق – يرتبطان ارتباطًا تامًا بالشفرة المنطوقة[2].

إن علاقة المتكلم بمجموع الخطاب والسياق الخطابي أقوى في اللغة المنطوقة منها في نظيرتها المكتوبة. ومن هنا نجد – كما يذكر فرانسواز أرمينكو – تعابير إنجازية، موجهة إلى ربط قول ما، بباقي الخطاب، وبكل السياق المحيط. من هنا نعثر على "أجيب" و"أستنبط" و"أستخلص" و"أعترض".

وتأتي هذه التعابير لتربط القول بالأقوال السابقة، وأحيانًا بالأقوال اللاحقة؛ إذ إن هذه الأقوال تأكيدية عامة[3].

---

(1) Hermann, H., Psychologie der Sprache, Berlin (1967) S. 8

(2) Soell, op. cit., S. 34

(3) فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة د/ سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط (١٩٨٦) ص٦٥